الفصل الرابع

العثمانيون ومراكش

إن مراكش ذلك القطر العربى الإسلامى الذى يحرس الجناح العربى فى الغرب من الوطن العربى تسلمت زمام الحكم فيه أسرة شريفة هى الأسرة السعدية منذ أوائل القرن السادس عشر واستمرت تحكم حتى منتصف القرن السابع عشر .

وعلى الرغم من نجاح العثمانيين فى الاستيلاء على الجزائر وليبيا وتونس ، وبالرغم من موقع مراكش المهم عسكريا بالنسبة للعثمانيين خاصة وأن سواحلها تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى ، كما أنها تقترب من إسبانيا من ناحية بوغاز جبل طارق . فقد ظل هذا الإقليم بمنأى عن السيطرة العثمانية التى حاولت إدماجه فى بقية أقاليمها كما حدث لبقية إقاليم العالم العربى ، ولكن مراكش استطاعت الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية ، ووقفت بإصرار ضد الأطماع التى هددتها سواء من جانب العثمانيين أو الإسبان لفترة طويلة وفيما يلى نعرض لأسباب ذلك .

فبعد أن تأسست دولة الأشراف السعديين فى مراكش على أنقاض الأسرة الوطاسية ، وتمكنت من تثبيت أقدامها هناك التمس "أبو حسون الوطاسى" مساعدة السلطان العثمانى "سليمان القانونى" الذى كان يدرك أهمية موقع مراكش ، ويرغب فى وحدة شمالى أفريقيا خلال الصراع المحتدم بين المسلمين والإسبان والبرتغاليين هناك مما يعطيه ثقلا عسكريا فى صراعه مع الإمبراطور الإسبانى "شارل الخامس".

ونتيجة لذلك أمر السلطان العثمانى بإعداد حملة لفتح مراكش بالتعاون مع "أبى حسون الوطاسى" • وقد تمكنت هذه الحملة من دخول فاس فى عام ١٥٥٤م وإعادة حكم الأسرة الوطاسية" على مراكش تحت السيادة العثمانية ، ولكن ذلك لم يستمر سوى بضعة أشهر حيث استطاع "محمد المهدى السعدى" استرداد فاس من العثمانيين •

ونتيجة لإصرار السعديين على عدم الانضواء للسيادة العثمانية أمر السلطان سليمان القانونى بإرسال حملة لاستعادة فتح مراكش ، وقد عهدت قيادة هذه الحملة إلى "صالح ريس" وكان من المتوقع أن تستقر الأمور للعثمانيين هناك خاصة وأن السلطان العثمانى سليمان القانونى كان يهدف إلى جمع الصف الإسلامى لتصفية الجيوب الصليبية فى مراكش وفى دخول الدولة السعدية فى تبعية الدولة العثمانية طوعا ، ولكن السعديين رفضوا الاعتراف بخلافه السلطان العثمانى على أساس أن العثمانيين ليسوا عربا وإنما هم أعاجم ، وبأن الشرافة فى مراكش يجب أن تكون لهم خاصة وأنهم يعتزون بنسبهم إلى الرسول وازداد تطلع الباب العالى إلى ضم المغرب الأقصى بعد التنافس على عرش السعديين بعد وفاة "عبد الله الغالب بالله السعدى" (فى رمضان ٩٨١هـ/ يناير ١٥٧٤) وتواجد بعض المطالبين بهذا العرش بالآستانة ، ولكن انشغال الدولة العثمانية بالاستعدادات لفتح قبرص ، ولجوء أعداء العثمانيين فى المغرب إلى سياسة التقرب من دول أوربا الغربية قد حال دون ذلك •

وبعد معركة وادى المخازن فى ٣٠ جمادى الأول ٩٨٦هـ/ ٤ أغسطس ١٥٧٨ التى انتصر فيها "عبد الملك السعدى" على القوات الإسبانية إعترفت الدولة العثمانية بسيادة السعديين على المغرب الأقصى ، وتوقفت عن فكرة التدخل المباشر فى المغرب ، كما حفظت الدولة السعدية للعثمانيين الود ، وتبادل الطرفان الرسائل التى تدل على حسن علاقات الجوار بينهما •

وقد حرص السعديون على مواصلة الجهاد البحرى ضد القوى الصليبية المتحالفة ضد المسلمين ، وكان استرداد المدن المغربية من تلك القوى المعادية هى بداية حركة الجهاد التى رحب بها العثمانيون. فقد اتبع "أحمد المنصور" الذى حكم المغرب فى الفترة من ١٥٧٨-١٦٠٣ سياسة الجهاد الإسلامى لمواجهة تقدم البرتغاليين على الشواطئ الأفريقية ، وذلك بنشر الإسلام بين الأفارقه ومد نفوذ دولته من حوض نهر السنغال حتى نهر النيجر . وقد نشأت فى تلك الجهات حكومة تحتفظ بالولاء الإسمى لسلطان المغرب استمرت حوالى قرنين من الزمان .

وقد حاول "أحمد المنصور" فى حركة الجهاد البحرى ضد القوى الأوربية المعادية أن يضرب القوى الأوربية ببعضها فحاول التحالف مع انجلترا وهولندا ضد إسبانيا ولكنه لم ينجح فى مسعاه وإن كان قد نجح فى عقد معاهدات معهما لتنظيم حركة الملاحة والتجارة .

واستمر الجهاد الإسلامى فى المغرب الأقصى فى عهد أسرة الأشراف العلويين الذى بدأ عام ١٦٦٦ ضد القواعد الإسبانية والبرتغالية فى الأراضى المغربية فتم استرداد مدن "المهدية" و"العرائش" و"أصيلة" أواخر القرن السابع عشر واسترداد ميناء "طنجة" ومدينة "مزاغان" من يد البرتغاليين . وبالنسبة للدول الأوربية التى لم تجاهر المسلمين العداء فعقد حكام المغرب معهم معاهدات تجارية، فقد تعاهد المولى محمد بن عبد الله - الذى استمر حكمه للمغرب من عام ١٧٥٧ إلى عام ١٧٩٣م - مع دول شمال أوربا ومع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٨٦ ، كما توسط لدى حكام تونس وطرابلس الغرب حتى تمتنع سفنها عن مهاجمة سفن الولايات المتحدة واستمرت الأمور على ذلك حتى حدث الغزو الفرنسى للجزائر فى عام ١٨٣٠ وبرز التفوق البحرى الفرنسى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط مما دفع بأنصار الجهاد البحرى الإسلامى فى المغرب إلى الانزواء .

وانتهى الأمر بقيام انجلترا بعقد معاهدة مع الغرب فـــى عـــام ١٨٥٦ تضمنت نصوصها الحرص على تأمين الملاحـــة فـــى البحـــر المتوســـط ، والقضاء على عمليات الجهاد البحرى المغربى التى كانت تتركز نشاطها عند سواحل الريف ٠ وزاد الأمر سوءا نجاح البحرية الإسبانية فى القضاء علـــى السفن المغربية ، والاستيلاء على مدينة تطوان ٠ ومنذ ذلك الوقت تزايـــدت الأطماع الأوربية فى المغرب حتى تم احتلال فرنسا لها فى عام ١٩١٢ ٠